موقع اللغة فى المجتمع

د. كمال بشر *

اللغة – مكتوبة ومنطوقة – تتمتع بقوة سحرية خارقة منذ أقدم أيام التاريخ؛ ذلك لأنها تؤثر فى حياة الناس وسلوكهم وتغير من قيمهم ومثلهم من فترة زمنية إلى أخرى. وهذه القوة السحرية ينبئ عنها احتفاء الأديان بها، ومنحها قيمة عالية.

ومالنا نذهب بعيداً وأمامنا الواقع الملموس فى الحياة التى نعيشها كل لحظة. فاللغة هى الوسيلة الأولى لبناء المجتمعات وأداة التواصل بين أفرادها، ولا يمكن تصور أى مجتمع إنسانى بدون لغة أى بدون وسيلة للتفاهم بين أفراده، وبعبارة أوجز وأعمق فى التعبير عن قيمة اللغة، نقول: إن الوظيفة الأساسية للغة هى تصريف شئون الدنيا وتدبير أمورها.

وإذا كان لنا أن ننظر إلى جوانب اللغة، كما فعل بعض الدارسين أمكننا أن نصل إلى خمسة جوانب، كل جانب منها يمثل زاوية من زوايا النظر العلمى إلى كل متكامل الأطراف. فهناك فى رأينا:

١- النظم اللغوية الثابتة المستقرة فى أذهان الجماعة، وهى ما أشار إليها دى سوسير بالمصطلح **Langue**، وهو جانب جماعى **Collective**، أو قل هناك المقدرة أو الكفاية اللغوية ذات الخاصة التوليدية، وهى ما سماها تشومسكى **Competence**، على أن تشومسكى يأخذ "المقدرة" على أنها خاصة إنسانية يتمتع بها البشر أجمعون، فى حين يركز دى سوسير على المخزون اللغوى العقلى عند الجماعة صاحبة اللغة

* أستاذ العلوم اللغوية بكلية دار العلوم – جامعة القاهرة.

المعينة. فالأول يرى "وحدة" المقدرة اللغوية عند الإنسان، والآخر لا ينكرها ولكنه ينظر إليها فى حدود اللغة المعينة لقوم معينين.

٢- التقاليد اللغوية السائدة فى المجتمع المعين المتمثلة فى أنماط الاستعمال العام وطرائقه، وضوابطه التى يسير على هديها المنشئون، ويوظفون قدراتهم اللغوية فى الإطار الذى اتخذته البيئة حدا أو معياراً للسلوك الصحيح. وهذا الجانب فى رأينا يقابل ما يعرف "بالسليقة" عند علماء العربية.

٣- جانب "ديناميكى" **Dynamic** ذو خاصة متجددة، يتمثل فى "تحريك" الجانب الأول وهو جانب النظم والقواعد المستقرة فى الذهن، ويكون التحريك بالإضافة أو النقص أو التعديل أو التغيير.. إلخ، وهو جانب فردى فى الأساس **Individual**. فإذا كتب له النجاح والقبول انضم إلى الجانب الأول وصار جماعياً.

٤- وسائل أو طرائقُ لغوية معينة تنتظمها الجوانب الثلاثة السابقة، من شأنها أن ترشد صاحب اللغة إلى حسن استغلال محصوله اللغوى، وتأهيل هذا المحصول للصحة والقبول، أوالوصول به إلى درجة الجودة والامتياز. وهذه الزاوية الرابعة يمكن أن نشير إليها "بتكنيك الكلام" **Techniques of Speaking** .

٥- وأخيراً هناك الأداء نفسه **Performance** ، أو ما يمكن أن نسميه فى هذا المقام "فن الكلام" **Art of Speaking** وهذا جانب فردى صرف، يعتمد على كفاية مستخدم اللغة وما يتمتع به من ذكاء وخيال وقدرات شخصية على حسن التواصل والبراعة فى استغلال إمكانات الجوانب

السابقة، وإخراج كلامه، والإلقاء به إلى السامع على وجه معبر ومؤثر ومحقق لأغراضه. وهذا الجانب الخامس لا يمكن تحققه أو ظهور أهميته ما لم يكن مرتبطاً بأنماط الكلام ومستوياته، ومتعلقا بمواقف الحديث ومواقعه أو ما يسمى مقتضى الحال أو ما ندعوه نحن "المسرح القومى".

ومن الواضح أن هذه الجوانب الخمسة تكوّن كلا متكاملا، ولا يمكن الفصل بينها، وإن جاز للدارس أن يركز على جانب دون آخر، وفقا لطبيعة عمله أو منهجه أو هدفه الذى ينتوى الوصول إليه.

ونحن هنا نوجه اهتماما إلى الجانبين الرابع والخامس وما ارتبط بهذا الأخير من مواقف وظروف ومناسبات، لأننا لا نرمى إلى "الحديث عن المقدرة اللغوية أو إلى وضع قواعد اللغة أو الإشارة إلى ضوابطها العامة أو البحث فى طبيعتها "الحركية"، وإنما نقصد إلى تقديم بعض الإرشادات أو بيان شىء من الوسائل التى تعين المتكلم على حسن استخدام ما لديه من محصول لغوى، وتأخذ بيده نحو لون متميز من التعبير رائق الشكل جيد المضمون، حتى ينجز أغراضه فى سهولة ويسر.

وإذا كان هذا النظر إلى جوانب اللغة ينطبق فى عمومه على الكلام المنطوق (وهو الأساس فى كل عمل لغوى)، فإن جل ما ينتظمه من حقائق ينطبق كذلك على الكلام المكتوب، بوصفه تصويراً أمينا وصادقا لصورته المنطوقة. أضف إلى ذلك أن المناقشات التى تدور حول الجانب الخامس (وهو ألصق بالكلام المنطوق) ذات نفع كبير فى إحياء المكتوب نطقاً على وجه صحيح.

ومعنى هذا على كل حال أنه من الواجب التركيز على الأداء اللغوى كتبًا ونطقاً. والأداء عمل فردى، أو هو فن يرتبط ارتباطاً وثيقاً بصاحبه وبطاقاته وقدراته الخاصة التى تتيح له إبراز مكنون نفسه فى صورة متميزة ذات مسحة شخصية أو ذاتية. ولكن الفن على اختلاف ألوانه وأشكاله يخضع لشىء من الضوابط والقوانين أو الاتجاهات التى من شأنها أن تحدد إطاراً عاماً يتحرك الفنان فى جنباته بحيث لا يتجاوز حدود هذا الإطار تجاوزاً يخرجه إلى حدود العبث أو "اللا معقولية". فالفن ذاتى أو فردى فى صورته النهائية، ولكنه فى الوقت نفسه ينطلق من إطار ذى حدود وسمات معينة.

ووظيفتنا هنا تقديم شىء من هذه الضوابط أو وضع خطوط عريضة لهذا الإطار، حتى نأخذ بيد المنشئ - كاتبا أو متكلما - ونسلمه إلى الطريق ليبدع ويشكل صوره الفنية، حتى يأتى أداؤه راقياً مؤثراً وافياً بأغراضه، وهذه الضوابط أو الخطوط ليست قواعد لغوية بالمعنى الدقيق، وإنما هى أشبه بإرشادات وتوجيهات إلى إمكانات اللغة وطبيعتها الخلاقة التى تسمح للمنشئ أن يغترف منها أو أن ينتقى من مادتها ما يحلو له وفقاً لأغراضه، أو أن يستغل هذه المادة ويطوعها أو يتصرف فيها تصرف "الفنان" الذى يجيد حرفة الصياغة والسبك وإخراج مادته "الخام" أو إبرازها فى صورة تبعث على الرضا والارتياح، وتروج بضاعته فى سوق "الكلام" ونقل المعرفة على وجه مفيد.

وهذا يعنى أننا نفترض بداهة أن هذا المنشئ لابد أن يكون مؤهلاً منذ البداية لهذه الوظيفة الفنية بطاقاته وطبيعته الإبداعية، وأن يكون، قبل هذا وذاك، مستوعباً استيعاباً مناسباً القواعد الأساسية للغة على مستوياتها

المختلفة؛ أى مستوياتها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية، وأن يكون محصوله من الثروة اللفظية محصولاً غنياً واسع الأطراف والجنبات. وهذا بدوره يعنى ألا فائدة ترجى من توجيهاتنا وإرشاداتنا "الفنية" هذه لأى منشئ للكلام غير ملم أو غير متصل اتصالا وثيقاً بالقوانين والضوابط العامة المقررة والمعترف بها بين الناس للغة التى يشكل منها مادته على وجه فنى مقبول.

ورأينا هذا موجه فى الأساس إلى كل من كانت الكلمة - مكتوبة ومنطوقة - حرفته وبضاعته، ونخص بالذكر من هؤلاء مَنْ نصّب نفسه أو اقتضته وظيفته إلى مخاطبة الجماهير بلسانه لا بقلمه، كالخطباء والوعاظ والمحاضرين والدعاة والإذاعيين والمدرسين على مستويات التعليم المختلفة؛ ذلك أن الاتصال بالجماهير بوساطة القلم يمنح صاحبه فرصة طيبة لحسن استغلال مادته اللغوية استغلالاً جيداً، حيث هناك الوقت والحرية فى إعمال قدراته لإخراج محصوله فى إطار فنى قدر الطاقة، فى حين يحرم من هذه الميزة -ميزة الوقت والحرية - صاحب الكلمة المنطوقة الذى لا تسعفه إلا دربة مناسبة على الأداء الفورى وخبرة ذات شأن على التوصيل بوسائله اللغوية "الفنية" المختلفة. وهذه الوسائل الفنية بدورها فى حاجة إلى معرفة سابقة وعلم بخطوطها العريضة، حتى يصيب هدفه. ومن هنا كان اهتمامنا الأكبر بهذا النفر من الناس الذين يخاطبون الجماهير بلا وساطة.

ويمكننا أن نصوغ ما تقدم مع اختصار غير مخل بقولنا: إن للغة جانبين؛ أحدهما عقلى يتمثل فى القواعد والنظم المخزونة المستقرة فى ذهن الجماعة، أو هى تمثل الجانب الموجود بالقوة، ويأتى نتيجة للأحداث

الكلامية الفعلية فى المواقف اللغوية الحية. فهذه الأحداث عند سماعها تنطبع فى ذهن السامع أو أذهان السامعين وتستقر هناك حتى تأتى المواقف المناسبة فتخرج عن طريق المتكلم الفرد فى صورة أصوات فعلية مادية. وتصبح هذه الأصوات رسالة الفهم والإفهام، وأداة التواصل بين الناس.

أما الجانب الآخر فهو الوجه المادى، الذى ينطقه المتكلم بالفعل فى موقف اجتماعى معين، وهذا الجانب فردى سريع الزوال؛ إذ يزول بمجرد نطقه وسماعه، وهو ملك الفرد، وفيه خواص صاحبه الفكرية والثقافية والمعرفية.

وهذا الجانب يستمد مادته من الجانب الأول أو مصوغ وفقا للقواعد والضوابط المخزونة فى ذهن المتكلم، تلك القواعد والضوابط التى تمثل الجانب الأول، ونعنى به الجانب العقلى المستقر فى الأذهان.

ومعنى هذا أن الجانبين متصلان وبينهما أخذ وعطاء دائمان، فكما تتجمع القواعد والضوابط العقلية فى أذهاننا نتيجة للأحداث اللغوية الفعلية المنطوقة، كذلك لا يكون الجانب الآخر المادى ولا يبرز إلى حيز الوجود إلا إذا كان هناك رصيد أو مخزون تستمد وتشتق منه تلك المادة الفعلية المنطوقة الحية.

ومعنى هذا أيضاً (وهو مهم) أن هذه الحصيلة من الضوابط والقواعد المخزونة والمستقرة فى الذهن إن هى إلا انعكاس أو صورة تجريدية لما يجرى فى الكلام المنطوق المسموع من أحداث لغوية كثيرة متكررة فى المواقف الاجتماعية، وكذلك الكلام المنطوق أو الأحداث الفعلية إنما تأتى دائماً على وفق هذا المخزون الفعلى التجريدى.

والنتيجة الحتمية لهذا التلازم بين الجانبين أن كلا منهما يمثل الآخر تمثيلاً صحيحاً، ويأتى كل منهما على سنن الآخر ويستمد خواصه وسماته من حيث المحصول والدقة والوفرة والانضباط والصحة، ومن حيث المستوى أو النمط، فإذا كنت تتكلم وتسمع لغة فصيحة صحيحة فى جميع أحوالك انطبعت فى ذهنك أو أذهاننا قواعد هذه اللغة، وإن كنت تستمع إلى لهجة عامية أو لغة هى خليط من اللهجات أو مستويات لغوية مختلفة جاءت القواعد والضوابط العقلية على وفق ما فى هذا الخليط من الكلام من ظواهر ونظم. ومن ثم عندما تتكلم يأتى كلامك بحسب ما استقر فى ذهنك من قواعد وضوابط، فإن كانت فصيحة كان المنطوق فصيحاً، وإن كانت عامية جاء المنطوق كذلك، وإن كانت خليطاً مستمداً من لهجات أو مستويات مختلفة كان كلامك على غرارها.

وهذا الذى نقوله ونؤكده يفسر عجز العربى المعاصر عن الكلام باللغة الفصيحة؛ لأن القواعد المستقرة فى ذهنه ليست قواعد هذه اللغة، وإنما هى قواعد كلام آخر يتمثل فى اللغة أو اللهجة التى يستخدمها ويسمعها آناء الليل وأطراف النهار.

أما قواعد اللغة الفصيحة التى يتلقاها المتعلمون فى المدارس والجامعات فلا تعدو أن تكون قوالب جامدة جافة صُبت فى أذهانهم صبًا، ولا تجد لها مخرجاً أو سبيلاً إلى الاستعمال أو الأخذ منها أو تطبيقها؛ لفقدان البيئة أو الجو اللغوى المناسب؛ إذ الجو اللغوى كله لهجات أو خليط منها. ولهذا كانت قدرة العربى المعاصر قدرة فائقة على الكلام باللهجة أو اللهجات؛ لأن قواعدها راسخة فى ذهنه ومستقرة به، ولم تكن نتيجة للتلقين

أو الحفظ أو الخزن التعسفى، وإنما جاءت نتيجة للاستعمال الحى المباشر الدائم.

وليس من الغريب إذن أن نجد من ثقف نفسه ثقافة لغوية فصيحة (بقراءة القرآن مثلا أو استخدام الكلام الفصيح فى حديثه وجعله عادة له) يستطيع بسهولة مناسبة أن يعبر عن نفسه بكلام فصيح صحيح.

اللغة إذن استعمال وخبرة ودربة، وليست قواعد أو مجموعات منها تُصب فى الأذهان صبًا. ومن هنا كانت نصيحتنا الأولى للمتعاملين بالكلمة العربية أن يمرنوا على استخدام الفصيح، وأن يجعلوه عادة لهم قدر الطاقة. وبمرور الزمن وتكرار التجربة تثبت قواعد هذا الكلام الفصيح فى ذهنهم، ومن ثم يستطيعون أن يستمدوا منها ويرسلوا كلامهم المنطوق وفقاً لها وعلى مثالها.

والملاحظ على كل حال أن المتعاملين بالكلمة العربية المنطوقة الآن فى موقف يدعو إلى النظر، إنهم معذورون ومقصرون. إنهم معذورون لأنهم لا يجدون الجو المناسب لترويج بضاعتهم وإعطائهم الفرصة المناسبة لتنمية محصولهم اللغوى الصحيح الفصيح، فهم إن حاولوا أن يتكلموا بالفصحى دقائق معدودة ألفَوا أنفسهم فى خضم هائل من اللهجات أو أخلاط منها ومن غيرها، وليس من البعيد أو النادر أن يسخر الناس منهم أو يحقروا بضاعتهم.

وهم أيضا مقصورن لأنهم يقفون بكلامهم الفصيح عند حدود ضيقة لا تجاوز الوقت المخصص لأداء وظيفتهم الرسمية أو ما أشبه، على حين كان الواجب على هؤلاء (وغيرهم) أن يلتزموا بنمط مقبول من أنماط اللغة الفصيحة فى كل تعاملهم اللغوى كلما أمكن ذلك. والنتيجة الحتمية – إن نحن

أخذنا بهذا النهج – أن يسود المجتمع كله جو لغوى فصيح، ومن ثم تصبح الأمور طبيعية لا تعقيد فيها ولا صراخ يأتى من هنا وهناك معلنا الحسرة على العربية وأهل العربية.

وحتى يأتى هذا الوقت المنشود الذى تصبح فيه الفصحى لغة استعمال لا مجموعة من القواعد والضوابط الجامدة المصبوبة صباً فى أذهان المتعلمين، ينبغى علينا دائماً أن نتابع الموقف اللغوى ونعمل على تنشيط ما لدينا من مادة لغوية، بتقديم النصح أو العود إلى القواعد بتقديمها بصور سهلة ميسرة، أو بالتدريب المتواصل على الاستعمال الحى، أو – فى أقل تقدير – بتقديم نوع من التصحيح لما يشيع على ألسنة المتعاملين بالكلمة العربية من أخطاء نتيجة الإهمال أو فقدان البيئة الصالحة للاستعمال الفصيح الصحيح، أو الوقوع فى شبهات لغوية لسبب أو لآخر.

والأخطاء الشائعة – كما هو معروف – ملحوظة فى الأصوات والصرف والنحو بمعناه العلمى الدقيق الذى يشمل النظم وطرائق تأليف الكلام؛ أما الأخطاء الصوتية فهى كثيرة ويمكن تعرفها بدراسة أصوات العربية الفصيحة.

ومن أبرز الأخطاء الصرفية ما يقع فى أوزان الفعل الثلاثى وصيغه وفى كيفية إسناد الفعل الناقص إلى الضمائر، إنها تحتاج جميعاً إلى ثقافة لغوية واتصال وثيق بقواعد الصرف. ومعلوم أن معظم قواعد الصرف إنما تأتى بالممارسة الفعلية، وبخاصة فيما يتعلق بأوزان الفعل الثلاثى إذ هى فى مجملها سماعية فإذا لم تسمع أو تعرف بطريق السماع الموثوق به لا يمكن الإتيان بها على وجه صحيح.

وأكثر الأخطاء الشائعة فى النحو تتعلق بالإعراب ووجوهه، وهى سهلة يمكن التخلص منها بمراجعة قواعد الإعراب، وإحياء هذه القواعد بالاستعمال الحى المباشر.

أما قواعد نظم الكلام وطرائق تأليفه فلم تخل هى الأخرى من الأخطاء، وهى فى حاجة إلى دراسات مستقلة لكثرتها وتشعب مناحيها.

بقى الأداء النطقى للكلام أو الإلقاء، وهو فن يكتسب عن طريق التجربة والدربة بمعاونة معلم ذواقة عارف بأسرار اللغة ووجوه أدائها وفقاً للمقام وظروف الحال.

قلنا إن اللغة محصول عقلى مخزون للأخذ منه وقت الحاجة بطريق الكلام الفعلى أو ما يمكن أن نسميه "الإرسال". هذا الإرسال - كى ينتقل ويؤدى غرضه بنجاح أو قبول - لا بد له من عدة وأدوات تؤهله لأداء غرضه، وهو التوصل والتأثير والتعبير.

هذه العدد والأدوات كثيرة منوعة وذات طبائع مختلفة، وإن كانت متكاملة فى أداء وظائف الكلام الإنسانى، ويمكن حصرها فى ثلاثة أمور رئيسية، ينتظم كل واحد منها أطرافاً أو جوانب جزئية ذات سمات خاصة. أول هذه العوامل اللياقة أو الصحة العضوية لجهاز النطق وأعضائه. إن أى خلل أو عيب فى أى من هذه الأعضاء يشوه عملية الكلام ويعيبه بصورة من الصور : صورة تقلل من درجات الجودة فى المنطوق، بوصفه كلا متكاملاً ينتظم الرسالة المراد توصيلها أو بثها فى الهواء. وكلنا نلاحظ ذلك عندما يتكلم إنسان حرم الصحة الكاملة فى أحد أعضاء نطقه، كتشوه الشفتين أو إحداهما وكبروز بعض الأسنان بطريقة غير عادية أو وجود خلل من نوع ما

فى الأوتار الصوتية أو الحنجرة. أو وجود "لحمية" فى الحلق أو الأنـــف، أو وجود عائق أو عيب فى أجهزة التنفس، أو عدم القدرة أو السيطرة والتحكـــم فى ضبط عملية الشهيق والزفير، أو ضعف فى الصدر أو الرئتين.

وغالبية هذه العيوب يمكن علاجها والتخلص منـــها بمعاونـــة أهـــل الاختصاص من الأطباء، وبعضها يصعب أو يستعصى علاجه، فيظل عقبـــة فى طريق الإرسال السليم ويحرم المتكلم من جودة التوصيل، التى هى أساس فى إصابة الغرض من الرسالة المنطوقة، وفى إنجاز مهمتها بيسر من قبـــل المتكلم وقبول أو تلق يأنس به السامع، ويتفاعل مع الرسالة بحســـب الحالـــة المعينة والمضمون الذى تنظمه الرسالة الصوتية.

ولا ننسى هنا احتمال وجود عيوب فى النطق ترجع إلـــى أســـباب نفسية، تبرز عند النطق فى صور " اللجلجة واللعثمـــة والتأتـــأة" أو خلـــط الأصوات بعضها ببعض أو استبدال كلمة أخرى، أو نسيان كلمة معينـــة أو علم شخص أو اسم شىء من الأشياء. وهذه العيـــوب – وغيرهـــا كثـــير – عصية العلاج علاجا ناجعاً، وإن كانت هناك محاولات جَرَتْ فـــى معـــاهد خاصة للنظر فى هذه العيوب على أسس نفسية. وقد وصلـــت بعـــض هـــذه المحاولات إلى نتائج ذات بال.

ومن المتفق عليه – على كل حال – أن الثقة بالنفس وعدم الشـــعور بالخجل والمحاولة المستمرة بإعمال الفكر وتدريب أعضاء النطق على اتخاذ الأوضاع الصحيحة – كلها عوامل تساعد على التخفيف من آثار هذه العيوب أو التخلص منها كلها أو بعضها.

العامل الثانى من عوامل جودة الكلام وامتيازه يتمثل فى الصحة اللغوية للرسالة. نعنى بذلك أن تأتى الرسالة المنطوقة على وفق المألوف المقرر فى البيئة اللغوية المعينة للمستوى اللغوى المعين من قواعد صوتية وصرفيه ونحوية وأسلوبية. وهذه الصحة تسمى عندنا "الصحة الداخلية" للنص فى مقابل الصحة الخارجية المتمثلة فى ربط الكلام بمقامه أو ظروفه أو ما سموه قديماً "مطابقة الكلام للمقام".

وهذه الصحة الداخلية هى الشغل الشاغل للغويين فى كل مراحل التعليم، ابتداء بالمدرسة الابتدائية وانتهاء بالتعليم الجامعي، حيث يحاولون تقديم القواعد الصوتية والصرفية والنحوية والأسلوبية للمتعلمين، قصداً إلى تنشيط ما لدى هؤلاء المتعلمين من مادة أو إلى تنميتها أو تصحيحها. ومن الجدير بالذكر أن عمل هؤلاء اللغويين يصبح غير ذى قيمة أو موضوع ما لم تكن لدى المتعلمين أنفسهم أرضية صلبة تتمثل فى استعداد عقلى وذهنى مناسب وفى وجود بيئة اجتماعية صالحة لغرس هذه البذور وتنميتها والأخذ والتوليد منها فى صورة رموز صوتية فعلية ذات أنساق معينة وطرائق من التأليف خاصة بحسب الحاجة والموقف. فإن كانت الأرضية اللغوية على العكس مما نرى فليس هناك كبير أمل أو مردود لما يلقى إلى المتعلمين. يتمثل هذا الوضع مثلا عندما نعمد إلى تقديم قواعد لغة معينة على حين يسود المجتمع أو يسيطر عليه لغة أو لهجات أخرى، كما هو الحال فى الوطن العربى. ففى هذه الحال لا تعدو أن تكون قواعد هذه اللغة أشبه بقوالب جامدة تصب فى الأذهان صبا وتبقى هناك بدون حراك أو استخدام أو توليد لها فى صورة حية.

أما العامل الثالث فيتمثل فيما نسميه "الصحة الخارجية" للكلام، ونعنى بها أن يأتى الكلام على وفق مقتضيات المقام وظروف الحال. وهذه الصحة لها جانبان؛ الجانب **الأول** يتمثل فى اختيار مادة الرسالة التى يود المتكلم توصيلها، فيختار وحداتها المؤلفة لها على وجه يناسب الظرف الاجتماعى المعين بما فيه من شخوص وأشياء، وبصورة تلائم الغرض أو الهدف المنشود من عملية الإرسال. وهذا الاختيار ينتظم صعوبات كثيرة، لاختلاف الأذواق والثقافات، وكثرة المواقف الاجتماعية والتداخل بينها على نحو يصعب على المنشئين وضع حدود واضحة لها. وهذا هو سر اختلاف المنشئين فى أساليبهم عند الكلام على الموضوع الواحد أو توصيل الرسالة المعينة، وللسبب نفسه يختلف ناقدو الأدب حول العمل الأدبى الواحد.

وخلاصة الحكم فى هذه القضية، (قضية الاختيار)، أن الجودة أو عدم الجودة فى هذا العمل أو ذاك إنما تقاس بمبدأ "التعبيرية"، فمتى كان العمل معبراً ومسوقاً وفقاً لمجريات الكلام ومناسباً لظروفه كان جيداً أو مقبولاً مع تفاوت فى درجة الجودة والقبول، وإذا لم يف بهذه الأغراض أو خلا من سمات التعبيرية وخواصها حكم عليه بالقصور أو الضعف أو الفشل.

أما الجانب **الثانى** من جوانب الصحة الخارجية (وهو مرتبط بالمقام وأغراض الإنشاء أشد ارتباط) فنعنى به الأنماط الموسيقية التى تصاحب الإنشاد أو الإلقاء. إن نغمات الكلام تختلف من موقف إلى موقف ومن حال إلى حال، ولكل نمط معهود من الموسيقى وما تنتظمه من ارتفاعات وانخفاضات تكسب الكلام حيوية وقوة تعبير، على ما هو مقرر معروف. وهذا فى الحق جانب صوتى يأتى بطريق الدربة والخبرة والمرانة، بعد

معرفة جيدة بالخواص الصوتية للغة وإدراك عميق لمعانى الرسالة.

وليست اللغة وسيلة تفاهم وتواصل فقط، فقد تكون سبباً من أسباب الشقاق والخلاف بين الناس. يروى لنا التاريخ فى الماضى والحاضر أمثلة كثيرة من هذا القبيل. فما الأزمات السياسية وما الحروب نفسها إلا نتيجة مباشرة أو غير مباشرة للفهم الخاطئ الذى يرجع – فى أساسه – إلى الخلاف فى تفسير معانى مجموعة معينة من الكلمات، تلك الكلمات التى تعبر عن الفلسفات والاتجاهات الفكرية الخاصة بكل كتلة من الكتل المتصارعة. من أشهر هذه الكلمات مثلاً : الحرية – العدل – الديمقراطية – الشيوعية – الاشتراكية – الرأسمالية – الاستغلال – المؤامرات، حيث إن هذه الكلمات (وغيرها كثير) ليست لها معان ثابتة متفق عليها من جميع الناس، لارتباط هذه المعانى بما يجرى بينهم من اختلاف فى الأيدلوجيات والثقافات والاتجاهات السياسية والفكرية.. إلخ.

فاللغة إذن قد تكون سلاحاً ذا حدين، أو أداة يكمن فيها الخير والشر جميعاً. وفى رأينا أن الكلمات أعمال قبل أن تكون أقوالا، فالكلمة ذات المغزى المعين قد تكون أقوى من الضربة المباشرة، فى بعض البيئات البدائية المتخلفة. وليس من الحكمة أن نصف اللغة بأنها مجرد كلمات تلقى فى الهواء وتصبح أثراً بعد عين بمجرد الانتهاء من نطقها. إن الكلمات تجسيد مادى لأفكار أو قيم أو مثل وأنماط سلوك، وهى – من جهة أخرى – تولد أفكاراً ومثلا أخرى من جديد.

وللكلمة إيحاء يدفع الإنسان إلى القيام بسلوك معين، ولها توجيه اجتماعى خاص. تأمّلْ كلمات مثل : الشرف – الإخاء – السلام – المساواة –

التعاطف .. إلخ؛ إن كل كلمة من هذه الكلمات ليست مجرد مجموعة من الأصوات صُفّت فى نسق معين، إنها فى حقيقتها بلورة لمعان، وترجمة مادية لقيم أو عادات ومناهج سلوك. وكل واحدة منها تحمل فى طياتها معانى عميقة قد تغير من سلوك الفرد أو المجتمع أو كليهما، وقد توجه كلاً منهما توجيهاً خاصاً يؤثر فى الحياة الإنسانية، وفى أنماط العلاقات البشرية كلها. ومن المعروف أن الديانات السماوية كلها قد ألقت بين أيدينا بكلمات هى فى واقع الأمر مبادئ وأسس تنبنى عليها خطط الحياة ومناهج السلوك، سواء أكان ذلك السلوك دينياً أم دنيوياً.

وما قوله تعالى " وعلَّم آدمَ الأسماءَ كلَّها" إلا تأكيد لقيمة اللغة فى الحياة وبيان لأهميتها البالغة فى المجتمع البشرى. ذلك أن آدم أو الإنسان – بعبارة أدق – هو خليفة الله فى أرضه، وهو وارث هذه الأرض. ومن الطبيعى أنه لا تكون خلافة ولا تتم وراثة بدون لغة تربط الإنسان بأخيه وتؤلف بين قلبيهما وعواطفهما. وبذا تسير الحياة ويتحرك الركب البشرى فى هذا العالم الواسع العريض الذى أبدعه الخالق عزّ شأنُه لسعادة هذا الإنسان ورفاهيته.

قد يشك بعض الناس فى القيمة العملية للكلمة، فيتوهمون أن الأفعال أقوى سلاحاً منها، مخدوعين بالإنجازات الظاهرة التى تؤدى إليها هذه الأفعال. والحق أن الأفعال لا تتم ولا تكون بدون كلمات ألبتة، فنحن فى كل أفعالنا – خيرها وشرها – تصدر عنا كلمات فى كل خطوات التنفيذ.

ربما يشير كل هذا الذى نقوله إلى أن بعض العبارات التقليدية من نحو "العبرة بالأفعال لا بالأقوال"، و" رجل عمل لا رجل كلام".. إلخ يقصد

بها حالات خاصة تلك التى تلقى فيها الكلمات بدون وعى وبدون تقدير لقيمتها وأهميتها. هذه الكلمات فى الواقع ليس لها من هذا الاسم نصيب إلا أنها مجرد أصوات أو ضوضاء تحدث فى الهواء، أصوات محرومة من السمة الأصلية للكلام وهى إنسانيته.

إنها – فى الأغلب الأعم – كلمات زائفة أو غير صادقة، أو هى كلمات يقصد بها إلى التضليل وتشويه الحقائق. ومع ذلك، فهى فى هذه الحالات قد أصابت أهدافها وأنجزت أغراضها من وجهة نظر صاحبها فى أقل تقدير. ومن هنا يجوز لنا على وجه من التجوز والتسامح أن ننسب إليها قدراً من التأثير والفعالية، شأنها فى ذلك شأن الأعمال، وإن كان هذا التأثير وتلك الفعالية ينحوان نحوا غير مقبول لارتباطهما بكلمات غير جديرة بالنظر والتقدير.

والتعبير الإنجليزى المشهور **Actions speak louder than words** (الأفعال أقوى من الكلمات) قد يكون مقبولاً فى ظاهره من وجهة نظر خاصة، ولكنه فى حقيقة الأمر لا ينفى أهمية الكلمة أو يقلل من شأنها. إن هذا التعبير ليس إلا صورة مؤقتة من صور خداع الأفعال والانبهار بنتائجها الفورية، هذا بالإضافة إلى أن هذه الأفعال ما كان لها أن تقع إلا بفعل كلامى يسبقها أو يصاحبها. وأما قول أبى تمام:

السيفُ أصدق أنباء من الكتب فى حده الحدّ بين الجد واللعب

فلا يناقض ما قررنا من قوة الكلمة وفاعليتها، ولا يعنى – بحال – أن الأفعال فى عموم معناها أقوى من الكلمات. إن أبا تمام يشير بهذا البيت إلى حالة معينة هى فتح عمورية، وفيها تم النصر نتيجة لحرب فعلية واقعية، لا نتيجة

لأقوال المنجمين، وهى المقصودة بكلمة "الكتب" فى عبارة الشاعر العربى. وأقوال المنجمين لا يمكن أن تعد من تلك الكلمات التى ترقى إلى شرف التأثير فى الإنسان والتى تحظى بالتبجيل والتقدير. إنها حالة خاصة لها ظروفها وملابساتها التى دعت الشاعر الكبير إلى هذا القول، ومعلوم أيضاً أن "السيف"(وهو كناية عن الفعل) لا يصدق ولا يقوم بدوره إلا بتخطيط كلامى بالفكر أو اللسان.

على أن هذا الضرب من الكلام غير المسئول يقودنا فى الحال إلى حقيقية مهمة، تستأهل النظر والتأمل. تلك الحقيقة هى أن اللغة عنوان الإنسان ودليل شخصيته، فبقدر ما تكون الكلمة صادقة خيرة، وبقدر ما تكون واضحة معبرة أو شائعة فى شكلها ومضمونها، بقدر ما يكون لصاحبها من منزلة ومكانة فى نظر الناس. إنها حينئذ كلمة تدل على عقل راجح وثقافة عالية وشخصية متكاملة فى التفكير والسلوك. وعلى النقيض من ذلك تماماً حين تنحو الكلمة منحى غير موفق أو سطحياً تافها. تتأكد لك صحة ما نقول حين يجلس إليك شخص لا تعرفه حيث تحار فى تقديره والحكم على شخصيته ونوعية تفكيره وأنماط سلوكه، حتى إذا فتح فاه وتكلم استطعت فى الحال أن تأتى عليه حُكْماً وأن تضعه فى موضعه اللائق به وفقاً لسلوكه اللغوى، ذلك السلوك الذى يكشف عن حقيقته ويُميط اللثام عن دخائله وتكوينه النفسى وموقعه الثقافى والاجتماعى. وقديماً قالوا :"لا تثن على الرجل قبل أن تسمعه يتكلم، فإن الكلام هو امتحان الرجال"؟

وللكلمة جانب آخر من جوانب تأثيرها على الناس فى كل المجتمعات البدائية منها والمتحضرة على سواء، إنها تتمتع بقوة خفية غامضة فى بعض

الظروف والمواقف، فهى مثلاً تستعمل فى كل أنواع الرُّقَى وتعاويذ السحر، وقد يهابها الناس، فيعمدون إلى تحريم استعمالها أو إلى تضييق مجال هذا الاستعمال. هذا التحريم وهذا الحظر معروف فى الأوساط الأنثربولوچية واللغوية، ويسمونه "باللامساس" **Taboo**، وتحريم استعمال الكلمات بتأثير فكرة اللامساس نتيجة للخرافات اللغوية وأثر من آثار الإحساس بسحر الكلمة.

ولقد تركت الخرافات اللغوية وعادات حظر استعمال الكلمات آثاراً ملحوظة فى كثير من قطاعات الثروة اللفظية؛ من ذلك مثلاً أننا نتحاشى ذكر أسماء موتانا الأعزاء، ونعبر عن ذلك بكلمات لطيفة رقيقة، كأن نقول: المرحوم، أبو محمد.. إلخ. ومن المعروف أن بعض أعضاء الجسم لا تذكر أسماؤها صراحة، وإنما يلمح إليها تلميحاً، من باب حسن التعبير. وهناك بعض الحيوانات التى تطلق عليها – لسبب أو لآخر – أسماء براقة، لطيفة لا تدل على حقيقتها فى شىء، من ذلك "ابن عرس" الذى حظى بأسماء عدة فى لغات مختلفة. فهو فى العاميات المصرية، يعامل معاملة المؤنث ويسمى "المخفية"، أو "أم أحمد" أو "آكلة العسل"، وفى الفرنسية يسمى "الجمال الصغير"، والألمان يدعونه "الحيوان الصغير الجميل" وهو عند الإيطاليين والبرتغاليين "السيدة الصغيرة"، وعند الدنماركيين "الجميل".. إلخ.

ومن هذا الباب ما يرويه لنا اللغوى الدنمركى يسبرسن من أن كلمة "السراويل" كانت تعرف فى يوم ما بأنها أشياء لا يمكن التعبير عنها أو توضيحها أو وصفها، ولا يحتمل النطق بها أو ذكرها أو الهمس بها كما كانت بعض السيدات تكتفى بالإشارة إلى قوائم البيانو وإلى أقدامهن ليتجنبن

ذكر الكلمة المعيبة "سيقان".

وهكذا نرى أن هذا السلوك اللغوى ليس إلا نتيجة من نتـــائج تـــأثير الكلمات وقوتها وسحرها. وهو فى الوقت نفسه مظهر من مظـــاهر تقديـــر الإنسان للكلمة واحترامه لها.

كل هذا الذى نقرره هنا يصدق على الكلمة فى صورتيها: المكتوبـــة والمنطوقة، ولكنه على المنطوقة أصدق؛ ذلك لأن الكلمة المنطوقـــة تتمتـــع بمزايا لم تحظ بها أختها المكتوبة. فهناك – فى النطـــق ومعـــه – عنـــاصر وعوامل ذات أهمية كبرى فى التأثير والتأثر. فهناك فى هذه الحالة الموقـــف الاجتماعى المعين أو ما نسميه المسرح اللغوى أو مجريات الكلام **Context of Situation** الذى يضع المتكلمين والسامعين وجهاً لوجه، وهـــذا الوضـــع يكسب اللغة صفة ديناميكية فعالة، حيث يصاحب الكلمة حينئذ ظواهر صوتية وأخرى حركية جسمية وغير جسمية، مثل نبرة الصوت وطريقـــة الإلقـــاء وملامح الوجه وحركات اليدين والعين وغيرها من حركات الجسم وأعضائـــه المختلفة من إشارات وغمزات وابتسامات أو عبوس، وكل واحدة من هـــذه الإشارات والحركات تمنح الكلمة قوة فاعلة فى النفاذ إلى القلوب والأسماع.

وهناك فى المسرح اللغوى كذلك عناصر أخرى بشرية وغير بشرية، وتتمثل الأولى فى السامعين أو جمهور الحاضرين، والأخرى فـــى الأشـــياء والأدوات الموجودة بهذا المسرح اللغوى، وكلها لا تقل قيمتها وأهميتها عـــن قيمة الديكور وأهميته فى المسرح التمثيلى.

وفوق هذا وذاك هنا تلك الخواص الصوتية التى تلف الكلام المنطوق دون المكتوب كالنبر أو الارتكـــاز **Stress** والتنغيـــم أو موســـيقى الكـــلام

Intonation، ولكل من هاتين الخاصتين أهمية فائقة فى إبراز المعانى ومنح الكلام ظلالاً وألواناً من الدلالات التى يصعب الحصول عليها من الكلام المكتوب. ويقع النبر على مستوى الكلمة والجملة جميعاً، وهو فى كلتا الحالتين عامل مهم من عوامل الكلام، وربما يكون ذلك أوضح وآكد فى الجمل والعبارات، كما يتبن ذلك من المثال الآتى:

أنا لم أقل هذا الكلام..

هذه جملة عادية ولها مضمون عادى فى أذهان العرب، حين يأخذ النبر طابعه المألوف الجارى على سنن قواعد النبر وطرائق توزيعه فى اللغة، ولكن هذه الجملة نفسها قد تؤدى معانى مختلفة فيما لو غيرنا فى مواضع النبر وتوزيعه وفقاً للمعنى المقصود، كأن يحدث التبادل فى مواقع النبر أو تعديل درجته من حيث القوة والضعف وفقا لدرجة الاهتمام أو عدم الاهتمام، كما يتبين ذلك من المثال الآتى:

أنا لم أقل هذا الكلام

(الاهتمام بأنا، أى قاله غيرى)

أو أنا **لم أقل** هذا الكلام

(الاهتمام بنفى القول، أى لم يحدث منى هذا)

أو أنا لم أقل **هذا الكلام**

(الاهتمام بهذه الكلام، ومضمونه أنه ربما قال غيره).

وهذه الظاهرة لا تختص بها اللغة العربية وحدها، ففى اللغات الأخرى يستغل النبر ودرجاته وطرائق توزيعه على مفردات الجملة لإظهار المعنى المقصود وتوضيحه. يقال فى الإنجليزية مثلاً:

You are ***Beautiful*** today

You are Beautiful ***today***

فبحيث يكون النبر على كلمة **Beautiful** (جميلة) يكون معنى الجملة : أنت جملية دائماً واليوم بوجه خاص. أما حين الضغط على كلمة **Today** (اليوم) فيكون المعنى : أنت جميلة اليوم (وقد يعنى أنها ليست جميلة في الأيام الأخرى).

وللتنغيم أهمية كبرى فى بيان المعانى وكشفها كشفا لا حفاء فيه، وفى إمكاناته على تصنيف الجمل والعبارات إلى أنماطها التركيبية المختلفة، من إثبات واستفهام وتعجب ونداء.. إلخ.

فالكلمة أو الجملة الواحدة قد تأتى بصور موسيقية عدة، وتنبئ فى كل حالة عن معنى يختلف قليلاً أو كثيراً عن معانيها فى الحالات الأخرى. لاحظ مثلا بعض المصطلحات والعبارات الشعبية الشائعة لتدرك قيمة موسيقى الكلام فى الإفصاح عن المعنى، بل عن الظروف والملابسات التى تلف الكلم كله، ولنأخذ العبارة العامة "يا ولد" مثالاً على ذلك.

فهذه العبارة قد تعنى مجرد النداء، وقد تفيد الإعجاب أو التشجيع (كما يحدث من جماهير المشجعين فى الألعاب الرياضية)، وقد تنبىء عن الإعجاب (كما يحدث أحيانا بين الشباب من الجنسين)، وقد تفيد الزجر (كما يحدث من الآباء بالنسبة لأطفالهم العابثين مثلا)، وقد يكون لها معان إيحائية أخرى.

وليس ببعيد علينا ذلك الذى نردده من وقت إلى آخر، من نحو قولنا مثلاً : "فلان باين عليه مش مبسوط" أو "طيب، وليه زعلان يا أخى" أو

"بتكلمنى بالطريقة دى إزاى؟".. إلخ، حين يكون الكلام مصوغاً في قالب موسيقى ذى خصوصية.

كل الذى حدث فى الواقع هو أن فلانا هذا نغم كلامه تنغيماً معيناً، أو أنه ألقى كلامه فى صور موسيقية تنبئ عن حالته النفسية وعلاقته بالمخاطب، وهذه الصور الموسيقية لها دلالاتها الإيحائية الخاصة فى أذهان أصحاب اللغة المعنية. إنهم بالخبرة والتجربة الفعلية يدركون تماماً أن هذا النمط الموسيقى أو ذاك يكشف عن هذه الدلالة أو تلك، ومن ثم يستطيعون تعرف الحالة الذهنية والنفسية للمتكلم بدون أن يخبرهم صراحة بذلك، وبدون أن توجد فى عباراته كلمات هى نص فى الدلالة على هذه الحالة.

يشير هذا كله إلى تفوق الكلمة المنطوقة على المكتوبة من حيث التأثير المباشر على السامعين، ومن حيث ما تتضمنه من أفكار موحية. وليس ذلك بدعاً من القول، فالكلمة المنطوقة كلمة حية فيها صدق الواقع ودفء الحقيقة، وتحمل فى طياتها نزعات المتكلم وشعوره، وتنبئ عن مكنون نفسه من عواطف وانفعالات.. إلخ.

واللغة المنطوقة – فوق هذا أو ذاك – لها دور كبير فى إصلاح المسار اللغوى وتنميته؛ ولذا نعود فنذكّر بما قلناه فى بداية هذه الدراسة، وهو أن اللغة تكتسب فى الأساس بالدربة والخبرة والممارسة الفعلية. فليس يكفى فى تعلم اللغة أو إجادتها حفظ القواعد أو إجادتها، بدون توظيف هذه القواعد فى صورة كلام حى منطوق بالتوليد منها ومن إمكاناتها المخزونة فى النفس أو العقل. ومن ثم يحدث التفاعل بين هذا المخزون وصوره المنطوقة، وينتهى الأمر بذلك إلى تأكيد هذا المخزون وإلى مجىء المنطوق على وفاقه

ومتسقا معه إن صواباً وإن خطأ وإنْ فصيحاً أو غير فصيح.

والمعروف أن المنطوق هو أساس المخزون أو القواعد اللغوية المجردة التى تستقر وتثبت فى عقل الجماعة اللغوية عن طريق توظيف المنطوق وتكراره واستخداماته، فإن جاء المنطوق صحيحاً، كان المخزون كذلك والعكس بالعكس. ومن ثم كان لنا أن نقرر أنه لا قيمة للقواعد ولا فائدة من تَعَلُّمِها فى صورتها الجامدة التقليدية بدون الحرص على ممارسة الكلام نطقاً وأداءً على نحو سليم صحيح. وفى هذا يقول ابن خلدون : "فأصبحت صناعة العربية عندهم كأنها من جملة قوانين المنطق الفعلية والجدلية وبعدت عن مناحى اللسان وملكته. وما ذلك إلا لعدولهم عن البحث فى شواهد اللسان وتراكيبه وتمييز أساليبه. وتلك القوانين ما هى إلى وسائل للتعميم، لكنهم أجروها على غير ما قصد بها (وحسبوها) علماً بحتا، وبعدوا بذلك عن ثمرتها".

ويؤكد ابن خلدون هذا الذى نقول مرة أخرى (وهو عدم كفاية القواعد فى تعلم اللغة) بقوله : طريقة التعليم المعتمدة على المنطق والفكر المجرد "هى بمثابة **من يعرف صناعة من الصنائع علماً ولا يحكمها عملاً**. كما لو سئل عالم بالنجارة عن تفصيل الخشب، فيقول : هو أن تضع المنشار على رأس الخشبة وتمسك بطرفه وآخر قبالتك ممسك بطرفه الآخر ويتعاقبانه بينهما، وأطرافه المضرسة المحددة تقطع ما مرت به ذاهبة وجائية، إلى أن ينتهى إلى آخر الخشبة. **وهو لو طولب بهذا العمل أو شيء منه لم يحكمه**".

ربما يعترض بعضهم ويدفعون بأن الكلمة المكتوبة لها خواص مهمة ليست لأختها المنطوقة، من ذلك مثلاً اكتسابها صفة الديمومة النسبية بفضل

التسجيل الكتابى وإمكانية وصولها إلى آفاق وأرجاء بعيدة بفضل النشر في صورة كتب أو مطبوعات.. إلخ.

نحن لا ننكر هذه الخواص، ولكن الكلمة المنطوقة ما زالت – على الرغم من ذلك – ذات تأثير أقوى وأشد فاعلية، هذا بالإضافة إلى أن هناك فى الوقت الحاضر وسائل حديثة كثيرة كالتليفون والراديو والسينما والتليفزيون والتسجيلات وضعت الكلمة المنطوقة فى وضع جديد جعلها تشارك المكتوبة بل تفوقها من حيث إمكانية الانتقال والوصول إلى أماكن بعيدة متفرقة. ومعلوم أن الإنسان العادى يسمع أكثر مما يقرأ. وبخاصة فى تلك البيئات التى تعتمد على اكتساب معارفها وثقافاتها على المسموع دون المكتوب، لأسباب ترجع إلى الأمية أو إلى القصور فى مناهج التربية أو إلى الجو الاجتماعى والثقافى العام.

معهد البحوث والدراسات العربية